

الفصل الثاني

الانتظام: هل السببية
محررة من أي قيد أو
ارتباط؟

ينطوي العالم على العديد من مظاهر الانتظام؛ فعندما يحدث شيء معين يرتبط به شيء آخر، أو يكون متبوعاً به؛ فعلى سبيل المثال: تسخين الماء يتبعه بصورة منتظمة تحوُّله إلى بخار، وعند تسخين الجليد يتبع ذلك ذوبانه، وعندما يأكل الناس الخضار فيعقبُ ذلك تحسُّن في صحتهم، فيما يكون امتناعهم عن تناول الطعام متبوعاً بالنحول والمرض، وعند رمي النوافذ بالحجارة يعقبُ ذلك تحطُّم الزجاج، ويتزامن مع التصفيق بالأيدي صدور صوتٍ محدّد... إلخ. نلاحظ هنا أنَّ هذه الحالاتِ المُنوعَة يجمع بينها شيء مشترك؛ فأنماط الأحداث، أو الأفعال، أو الحالات تحصل في صورة ثنائيات متلازمة، وهذا يعني أنَّ وقوع حدث ما - كالتصفيق بالأيدي مثلاً - يتبعه حدث ثانٍ مميِّز وهو صوت التصفيق.

لماذا تظهر هذه الروابط المنتظمة بين أنماط الأحداث؟ ولماذا تقترن هذه

الأحداث معاً بصورة ثنائية؟

الجواب الطبيعي عن هذا السؤال يتمثل في أن الحدث الأول يتسبب في وقوع الحدث الثاني؛ فعلى سبيل المثال: تسخين الجليد يؤدي إلى ذوبانه؛ لذا ليس من قبيل المصادفة أن يذوب الجليد بعد تسخينه؛ فالتسخين يؤدي إلى حدوث الذوبان، ولكن: هل نمتلك المعلومات الكافية لنقول ذلك؟ هل تفسر السببية ظاهرة الانتظام؟

لقد قدم لنا هيوم نظرة جديدة إلى السببية، وقد وجد كثيرون أن أفكاره منطقيّة، ومُقتنعة.

تمثلت فكرته الجديدة في قلب مسألة السببية، والترابط رأساً على عقب؛ فقد اعتقد هيوم أن السببية لا تفسر الترابط، بل العكس صحيح؛ أي إن الترابط هو الذي يفسر السببية، ولا يتعين علينا الإشارة إلى أن نوعاً معيناً من الأشياء يتبع شيئاً آخر بانتظام لأنهما مرتبطان سببياً، بل علينا الاعتقاد أن شيئاً واحداً يتسبب بحدوث الآخر فقط؛ لأن أحدهما يتبع الآخر بانتظام.

هيوم، ولعبة البلياردو

كيف تمكّن هيوم من معارضة الحسّ السليم بهذه الطريقة؟ وبمّ كان يفكر؟ لقد اعتقد التجريبيون أنه من المهمّ العودة إلى الأدلة الحسيّة، بينما اعتقد هيوم أنه يجب علينا العودة إلى الخبرات، والتجارب الأصليّة التي قادتنا إلى الأفكار، والمفاهيم لفهمها بصورة فضلى، فإذا وضعنا فرضيات الحسّ السليم، أو الفطرة السليمة جانبا، ستكشف لنا خبرتنا أن شيئاً ما يتبع شيئاً آخر دون أن يكون الحدث الأول مرتبطاً بالذي يتبعه، أو يصنعه، أو يتسبب بحدوثه.

يرى هيوم أن خير مثال على السببية يمكننا أن نشاهده على طاولة البلياردو؛ فعندما تتحرّك إحدى الكرات باتجاه كرة أخرى، ثم تتلامس الكرتان، تتحرّك

الكرة الثانية التي كانت ساكنة بعيداً عن الكرة التي اصطدمت بها، ونحن على يقين بأن الكرة الأولى المتحركة تسببت بحركة الثانية، ولكن لماذا علينا الاعتقاد بذلك؟ وما الدليل الحسي الذي نملكه، و يثبت صحة اعتقادنا؟ وما الذي يدفعنا إلى هذه القناعة؟

يعتقد هيوم أن كل ما نراه هو سلسلة من الأحداث المتوالية: فعندما ترى لاعباً يضرب كرة بلياردو، فأنت تشاهد على الطاولة أحداثاً تحصل وفق ترتيب معين؛ لنتخيّل المشهد من جديد: عندما تكون عصا البلياردو في وضع التسديد، ثم تتحرّك إلى الأمام لتلامس الكرة البيضاء التي تتدحرج على فضاء الطاولة، ثم تلامس كرة حمراء، لنسمع صوتاً عند اصطدام الكرتين، ثم تتحرك الكرة الحمراء بعيداً، بينما تغيّر الكرة البيضاء اتجاه حركتها، ثم تتباطأ، ويستمر وقوع الأحداث وفق هذه الطريقة.

غالباً ما تستعمل لغة السببية عند وصف مثل هذه السلسلة من الأحداث المتوالية؛ فقد يقول شخص ما: إن الكرات أصدرت صوتاً عند تصادمها، وكأنه يقول: إن الصوت ناتج من الاصطدام، ولكن كل ما نعرفه من خلال خبرتنا هو تتابع الأحداث، فنحن لا نملك دليلاً تجريبياً فورياً يربط بين تلامس الكرات، وصدور الصوت.

لماذا علينا الاعتقاد بأن أحد الأحداث تسبب بوقوع حدث آخر، مع أننا نعرف أن هذه الأحداث مُسلسلة؟ لدى هيوم جواب عن هذا السؤال، فهو يرى أنه لا يمكننا الإقرار بأن حدثاً ما يتسبب بوقوع حدث آخر من خلال دراسة مثال واحد فقط - كأن تصطدم كرة بأخرى، فتتحرك الثانية - ولكن من خلال خبراتنا، فنحن بالتأكيد قد رأينا أمثلة مشابهة؛ فقد شاهدنا العديد من ألعاب البلياردو، والسنوكر، وفي كل لعبة تحصل ضربات وتصادمات كثيرة بين كرات البلياردو،

وما نعرفه في حالة كهذه أن الكرة الثانية تبدأ بالحركة عندما تصطدم بها كرة أخرى بعد أن كانت الثانية في موضع السكون.

تقول نظرية هيوم: إننا لا نعي فكرة السببية إلا من خلال ملاحظة الأحداث المنتظمة. إن تكرار الأمر هو مفتاح الحل؛ فعندما يكون حدث ما متبوعاً بحدث آخر على الدوام، فهذا يقودنا إلى الاعتقاد بأن الحدث الأول تسبب بحدوث الثاني.

أفكار هيوم المختلفة

لا يوجد في تفسير هيوم ما يسمح بطرح فكرة الناتج السببي إلا بقدر ما يُعتقد أن ما نعينه بالناتج هو وجود تسلسل مُنْتَظَم لحدث من نوع محدد متبوعاً بحدث آخر، وقد رأينا كيف تتجلى مسألة السببية بوجود تسلسل منتظم لنمط معين من الأشياء يعقبه نمط آخر، ولقد مررنا بأن مسألة السببية تتمثل في أنه لا يوجد ارتباط ظاهر يربط السبب بالنتيجة. وبناءً على ما تقدم، ووفقاً لوجهة نظر هيوم التجريبية، فلا مبرر للاعتقاد بالترابط السببي؛ لأنه لا يوجد أثر حسي لذلك. إن مفهوم هيوم للسببية يتلخص في القول الآتي: «تبدو الأحداث كلها حرة تماماً ومنفصلة: حدث يتبع حدثاً آخر، لكن لا يمكننا رصد أي رابط بينهما. إنهما يبدوان مقترنين، لكنهما غير متصلين ببعضهما على الإطلاق. (An Enquiry Concerning Human Understanding section (VII, part 2

في مرحلة لاحقة، اقترح الفيلسوف ديفيد لويس (1941 - 2001م) -وهو من أتباع هيوم- أن نفهم فكرة هيوم وفق التصور الآتي: العالم مجموعة واسعة من الحقائق غير المترابطة، شيء صغير يتبعه شيء آخر، ولكن عندما ننظر إلى هذه الحقائق المختلفة، فقد نميز نموذجاً ما. إن المسألة تبدو كما لو أننا وضعنا

قطع الفسيفساء في دلو، ثم هزّزناه بقوة، ومن ثمّ رمينا هذه القطع على الأرض، وعندما تسقط كل قطعة في مكان معين بمحض الصدفة، فسنرى نموذجاً واضحاً قد تشكل: توجد قطعة حمراء حذاء كل قطعة زرقاء، ولكن لا شيء يفرض هذا النموذج، أو يستدعيه، إنها مجرد حقيقة عن الفسيفساء.

إنّ مثال الفسيفساء مجرد تشبيه، لكنه مفيد؛ فعلى غرار أنماط قطع الفسيفساء، فإنّ العالم -وفقاً لأتباع نظرية هيوم- يتألف من أنماط من الأحداث، ونحن نشكل فتاعاتنا حول الرابطة السببية من خلال معاينة أنماط مشابهة في الطبيعة، قد يُلقى هذا المثال الضوء على بعض ملامح السببية، مثل: انتفاء التناسق الواضح، ونعني بانتفاء التناسق في السببية أنّ الحدث (أ) يتسبب بحدوث (ب)، لكن (ب) لا يتسبب بحدوث (أ). وعليه، فإنّ احتكاك عود الثقاب بسطح ما يتسبب باشتعاله، وليس العكس صحيحاً. بالنسبة إلى أتباع هيوم، فهذا يعني أنّ الحدث (أ) يكون متبوعاً دائماً بالحدث (ب)، لكن (ب) لا يكون دائماً متبوعاً بالحدث (أ)، وهذا ممكن كما يظهر من تجربة الفسيفساء. لقد قلنا: حيث تكون قطعة زرقاء ستكون إزاءها قطعة حمراء، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنّ أيّ قطعة حمراء سنجد بجانبها قطعة زرقاء؛ فقد تكون بعض القطع الحمراء محاطة بقطع من ألوان أخرى. لقد قلنا: إنّ القطع الزرقاء ستكون دائماً مرافقة للقطع الحمراء أينما وجدت.

وعوداً على بدء، ففي الاقتباس المنسوب إلى هيوم نجد أنه يعتقد بالاقتران، والاتصال بين الأحداث، وليس بالارتباط بينها، وغالباً ما تُسمى وجهة نظر هيوم بتفسير الاقتران الثابت، أو التزامن المتواصل؛ فإذا تسبّب (أ) بحدوث (ب)، فهذا يعني أنه يوجد اقتران ثابت بين (أ)، و(ب)، بالإضافة إلى بعض الشروط التي سنناقشها في الفصل القادم.



انتظام من دون نتيجة

تبدو فكرة الاقتران الثابت بسيطة جداً، لكن أتباع هيوم يشيرون إلى أنه بصرف النظر عن مقدار دقة الحالة التي أمامنا، أو تعقيدها، فإن افتراض السَّبِيَّة لا يعدو عن أنه اقتران مستمر بين السَّبب والنتيجة.

من الواضح أن قطع الرأس يتسبب بالموت، وبالنسبة إلى أتباع هيوم فإنَّ عمليات قطع الرؤوس كلها تكون متبوعة بالموت، وقد يميل أحدنا إلى الاعتقاد أنَّ هذا أكثر من مجرد اقتران ثابت، ويمكن لأحدنا أن يدَّعي المقدرة على تفسير سبب الموت بعد قطع الرأس على النحو الآتي: يتحكَّم الدماغ بالعديد من وظائف الجسد وفق آليات عمل مرتبطة بأعصاب الحبل الشوكي، وإذا قطعت الرأس،

فستتوقف أعضاء الكائن الحي عن العمل. لكن أتباع هيوم لديهم تفسير آخر لهذه الحالة؛ فمع أننا نعتقد غالباً بوجود آليات تعمل وفقاً للاقتران الثابت أو الانتظام، فإن آثار هذه الآليات نفسها لا تعدو عن أنها انتظامات إضافية. وبناءً عليه، فإن الموضوع ليس سوى مسألة انتظام، وهذا يعني أن العديد من وظائف الجسد تتوقف عن العمل عند قطع الحبل الشوكي؛ لذا فإن وجود هذه الآليات يُظهر لنا أن هيوم لم يكن بعيداً عن دائرة الصواب عندما اعتقد أن السببية ليست سوى مسألة انتظام؛ فهذه الآليات تعمل بالطريقة نفسها، وستقدم لنا مزيداً من الانتظامات فقط.

لنأخذ مثلاً واقعياً آخر يتعلق بالسباكة: عندما تسحب مقبض الدافق في المرحاض، يتحرر الماء من الخزّان لينزل إلى الحوض، وهنا لدينا اقتران ثابت، لدينا تفسير لما يحدث: فعند النظر داخل الخزّان تجد أن سحب المقبض يحرر صمّام الدافق ما يسمح للماء بالتدفق في الأنبوب إلى حوض المرحاض. ما حدث هنا اقتران ثابت، لكن وفقاً لهيوم -علماً أنه لم يكتب في الواقع عن دورات المياه - إن ما وجدناه هو اقتران ثابت آخر بين فتح الصمّام، وحركة الماء، وربما توجد تفسيرات أخرى لهذا الترابط المستمر - من حيث الفراغ، والجاذبية - لكن هذه التفسيرات لا تعدو عن أنها اقتران ثابتة؛ أي تزامناً متواصلًا، إنها انتظام آخر: فالماء يملأ الفراغ، ويتدفق إلى الأسفل.

وبصرف النظر عن تفاصيل الحالة السببية، أو تعقيدها، فهي مرتبطة دائماً بالانتظام وفق ما يدعيه أتباع نظرية هيوم، ويبدو هذا صحيحاً بالنظر إلى قوانين الطبيعة الأساسية. ومن حيث المبدأ، لا يوجد تفسير أبعد من ذلك.

وإذا أخذنا قانون الجاذبية بالحسبان -على فرض أنه قانون أساسي- باستطاعتنا القول: إن أي جسم يُطلق بالقرب من سطح الأرض يسقط باتجاهها. وعلى وجه العموم، فالأجسام تتحرك باتجاه بعضها بقوة معينة، وهذا وارد في

قانون الجاذبيَّة الذي ينصُّ على أنَّ هذه القوَّة تتعلق بكتلة الأجسام، والمسافة فيما بينها.

قد تكون الرياضيات خياليَّة، وصوراً ذهنيَّة، لكن الفكرة الأساسيَّة أن قوانين الطبيعة ليست سوى ملخَّصات، أو تنظيمات لما يحدث في هذا العالم بانتظام.

صُدَاع هِيوم

ربما تبدو أفكار هيوم قادرة على تفسير اعتقادنا الحاليَّة بخصوص مُسببات الأشياء؛ فقد لاحظنا حالات عدَّة لأشخاص يعانون الصُدَاع، ثم يشعرون بتحسُّن فوراً بعد تناول دواء الباراسيتامول، وربما يقودنا هذا للاعتقاد -وفقاً لهذا الانتظام- بأنَّ هذا الدَّواء يعالج الصُدَاع، لكن ما الذي سيفعله أحد أتباع هيوم فيما لو عانى الصُدَاع؟ هل سيتناول حبة من هذا الدَّواء؟ يعتقد هيوم أنَّ الانسان يفكر بطريقة محدَّدة؛ فعقولنا مسؤولة عن نمطيَّتنا في التفكير، ومن الطبيعيِّ أن نرى الآخرين -وأنفسنا أيضاً- يشعرون بتحسُّن بعد تناول الدَّواء؛ لذا علينا القيام بذلك عندما نعاني الصُدَاع في المرَّة القادمة. لكن ما من أساس منطقيِّ لقرارنا بتناول الدَّواء وفق فلسفة هيوم. من الطبيعيِّ أن يُكوِّن البشر توقُّعات معيَّنة بشأن المستقبل بناءً على أحداث الماضي، لكن لا يوجد لهذا الاستنتاج الطبيعيُّ أيُّ مبررٍ منطقيِّ.

وفقاً لذلك، قد يعتقد أحد أتباع هيوم أنَّه من غير المنطقيِّ أن يتناول المُصاب بالصدُّع الدَّواء معتقداً أنَّ صداعه سيزول بعد ذلك؛ فاستناداً إلى فلسفة هيوم لا يوجد ارتباط حقيقيٍّ بين الدَّواء، وزوال الألم. المشكلة هنا أننا نعتمدُ على خبرتنا في الحالات المنتظمة التي خبرناها حتى الآن.

في الحالات التي ذكرناها، لاحظنا أن الحدث (أ) يكون متبوعاً بالحدث (ب)، ولكن نظراً لأنه لا يوجد شيء يشير إلى أن الحدث (أ) يؤدي إلى حصول الحدث (ب) بعده، فلا يوجد أي مبرر منطقي لنقول: إن الأحداث من النوع (أ) ستعقبها أحداث من النوع (ب).

وإذا عبّرنا عن ذلك بطريقة فلسفية نقول: إن وجهة نظر هيوم فيما يتعلق بالسببية تستدعي مشكلة الشك الاستقرائي؛ فالاستقراء صورة من صور الاستدلال، ويمكن من خلال الأحداث الماضية الملاحظة أن نستدل على الأحداث المستقبلية غير الظاهرة؛ فعلى سبيل المثال: إن رؤية عود الثقاب يضيء عند احتكاكه بسطح ما، يجعلنا نفترض أن أيّ عود ثقاب يحترق بسطح معين في المستقبل سيضيء، ولا تقدم الرؤية الانتظامية أي تفسير يبين سبب وجوب حدوث ذلك. وعليه، فإن الاستدلال الاستقرائي يبدو بلا أساس. لم يكن هيوم سعيداً بهذا التضمن، لكنه اعتقد أن لا مفر منه.

في أي زمان، وفي أي مكان

ينظر أنصار ديفيد هيوم في العصر الحديث -من أمثال ديفيد لويس- إلى فسيفساء هيوم بطريقة مختلفة بعض الشيء، فهم يركّزون على البعد الميتافيزيقي للواقع بدلاً من مجرد نظرتنا الزمنية المؤقتة إليه، وعندما يتحدث فلاسفة الميتافيزيقيّة هؤلاء عن الانتظامات، فإنهم يفكرون في الانتظامات الموجودة في أحداث العالم كلها من البداية حتى النهاية بصورة مستمرة.

وإذا أخذنا بالحسبان فسيفساء هيوم مرة أخرى، فسيدفعنا مؤيدو ديفيد لويس لأن نفكر بها كما نفكر في فسيفساء تظهر فيها الأحداث جميعها التي تقع في أي زمان ومكان. إن الاقترانات الثابتة عبر التاريخ، منذ الانفجار العظيم وحتى الانكماش العظيم، تُعدّ انتظاماً حقيقياً بوصف هذين الحدثين أول أحداث

الكون وآخرها، وقد لا يكون الوجود البشريُّ محظوظاً إذا بدا شيءٌ ما منتظماً دون أن يكون كذلك في الواقع؛ فقد يكون في تاريخ العالم حتى هذا العام أنَّ الحدث (أ) كان متبوعاً بالحدث (ب)، وربما نفترض أنَّ الحدث (أ) سيتسبَّب بحدوث الحدث (ب) مستقبلاً، ولكن من المُحتمل أنَّ الحدث (أ) لن يكون متبوعاً على الدوام بالحدث (ب) ابتداءً من العام المقبل.

لن يكون العالم رحيماً بنا إذا ضلَّنا بهذه الطريقة، ولكنَّ الأحداث المستقبلية -وفقاً للأسباب الحقيقية جميعها- ستكون مثل الأحداث الماضية، وسيكون لها اقتران ثابت حقيقيٌّ في كلِّ مرة؛ ولهذا فإنَّ مشكلة الاستقراء لا تتعلق بمعلوماتنا فقط، وإنما بنظرتنا المحدودة إلى العالم أيضاً. إنَّها ليست مشكلة السَّبَبِيَّة بحدِّ ذاتها وفق النظرة الكلية لنظرية هيوم.

لكن ربما يوجِّه هذا الأنظار صوبَ مشكلة أخرى تتعلق بنظرية الانتظام هذه، فسواء تسبَّب حدث ما بحدوث آخر، فالموضوع -وفقاً لوجهة النظر هذه- لا يتعلق فقط بهذين الحدثين، وطبيعة العلاقة بينهما، فمبدأ أنَّ يؤثِّر الحدث الأوَّل في الثاني يعتمد على ما يحدث في أماكن وأزمنة أخرى وفقاً لنظرة هيوم الكلية، ويعتمد ذلك على كلِّ مثال مُشابه، وبذلك تصبح السَّبَبِيَّة مسألة تقوم في أساسها على العلاقات بين الأشياء إلى حدِّ كبير.

قد نعتقد أنه كلما اصطدمت كرة بلياردو بكرة أخرى، فإنَّ هذا الاصطدام بالكرة البيضاء يجعل الكرة المُستهدفة تتحرَّك، ولكن: ما علاقة هذا بما يحدث في لعبة بلياردو على طاولة أخرى؟ كيف يمكن أنَّ يؤثِّر ما يحدث على طاولة بلياردو أخرى فيما يحدث على طاولتك؟ بعبارة أخرى، إذا كانت الكرة البيضاء قد جعلت كرة البلياردو الحمراء تتحرَّك، بحسب نظرية هيوم، فهذا يرتبط بكلِّ عملية اصطدام أخرى حدثت بين الكرات على مرِّ التاريخ، بما في ذلك بعض الاصطدامات التي ستحدث ضمن آلاف السنين اللاحقة، وبوجه عامٍّ فإنَّ حقيقة

قيام الحدث (أ) بالتسبب بوقوع الحدث (ب) يرتبط بالعديد من الأحداث الأخرى، فهل يمكن أن يكون الأمر حقاً هكذا؟

أحياناً يتم تمييز هذا النوع من التفسيرات الأحاديّة المرتبطة بالعلاقات الخاصّة بالسببية، فأتباع التفسير الفرديّ، أو الإفرادي يبحثون عن ارتباطات سببية بين الأحداث الفرديّة مُحدّدة التوقيت كأنّ يصفّق سلطان بيديّه في يوم الخميس مُحدّثاً صوتاً مميّزاً، ويعتقد أصحاب الاتجاه الإفرادي، أو الفرديّ أنّه بإمكاننا تجاهل كلّ شيء آخر ما عدا هذين الحدثين إذا أردنا أن نعرف فيما إذا كان أحدهما يتسبّب بحدوث الآخر.

وفي المقابل، يؤكّد أتباع هيوم - بوصفه جزءاً جوهرياً من نظريّتهم - أنّ حدثاً ما يمكن أن يتسبّب بحدوث آخر إذا كان هذا التسلسل حالةً من حالات قانون تفسيريّ عامّ، وهذا يعني أنّه يتعيّن وجود قوانين سببية. ومثال ذلك، أنّ الطعام يُغذيّ الجسم، أو بالأحرى تناول الطعام يرتبط دائماً بالتغذية الجيدة، وهذا يقودنا إلى استنتاج مفاده أنّ تناول (فرح) لرغيف الخبز يمكنها من الحصول على تغذية جيّدة.

الأمر هنا لا يتعلق فيما إذا كان شيء ما يمكن أن يتسبّب بحدوث آخر، فإذا لم يوجد نموذجٌ منتظمٌ لحدث يتبع حدثاً آخر، فهذا يعني أنّنا لا نملك بالفعل سبباً وجيهاً للاعتقاد بالعلاقة السببية.

المصادفات ستحدثُ

مع ذلك، يرى معارضو نظرية الاقتران الثابت أنّ هذه النظرية تُعاني نقطة ضعف أخرى؛ فالنظرية غير قادرة على التمييز بين الأسباب والمصادفات، وهذا

ما جعلهم يطرحون السؤال الآتي: ألا يمكن أن يُوجَد فرق محتمل بين الانتظامات السَّبَبِيَّة الحَقِيقِيَّة والمصادفات المحضة؟

نحن نميل عادة إلى التمييز بين المصادفات، والحالات السَّبَبِيَّة؛ مثلاً: إنَّ الفوز بتذكرة في سباق للخيل وأنت ترتدي ربطة العنق التي تتفاءل بها قد يكون محض صدفة، ومن المؤكَّد أنَّ ربطة العنق لا يمكن أن تؤثر في نتيجة السِّباق، لكن ماذا لو تكرَّر الأمر مرَّةً ثانية، وفزت وأنت ترتدي ربطة العنق نفسها، ثم تكرَّر الأمر أيضاً مرَّةً أُخرى؟

ماذا يمكن لأحد أتباع نظريَّة هيوم أن يقول عن الفرق بين الأسباب والمصادفات؟ ما عليهم أن يفعلوه هو التفكير في النمط الأوسع للأحداث؛ بمعنى هل تقترن أحداث النوع الأوَّل دائماً بأحداث النوع الثاني؟ هنا، لا يُسَمَّح لنا بطرح أيِّ افتراضات عن ماهيَّة المصادفة؛ فوفقاً لمدرسة هيوم، إنَّ أيَّ نوعين من الأحداث يمكن أن يكونا مقترنين باستمرار، والعكس صحيح. وبمعنى آخر، إنَّ السَّبَبِيَّة - وفق هذه النظرة - هي علاقة تماسُّ بصورة كليَّة، فلا يوجد أيُّ تناقض بين أيِّ نوعين مميَّزين من الأحداث، سواء مرتبطين سببياً كانا، أم لم يكونا كذلك.

هنا تكمن المشكلة؛ فعندما يفوز شخص ما في السِّباق وهو يرتدي ربطة العنق المفضَّلة تلك، فإنَّنا نفكر تلقائياً في الأمر على أنه مجرد صدفة، لكن إذا افترضنا أنَّ هذا الشخص فاز كل مرَّة وهو يرتدي ربطة العنق تلك، فكيف سيُفسَّر الأمر في هذا المقام؟ سيقول أتباع نظرية هيوم: بما أنَّ السَّبَبِيَّة تعمل بانتظام، فإنَّ ربطة العنق تسبَّبت في كل مرَّة بالفوز في السِّباق.

إذا كان الأمر مجرد صدفة محضة، فقد يكون من المُستبعد أن يرتبط حدث ما بحدثٍ آخر مرَّات عديدة، لكنَّ أتباع هيوم لا يمكنهم في الواقع تأكيد ذلك؛

فقد ضيق هيوم الخناق على نفسه عندما قال في نظريته: إذا كان الحدث (أ) يرتبط بالحدث (ب) دائماً، فإنَّ الأوَّل يتسبَّب بحدوث الثاني.

من جهة أخرى، يمكن لمعارض هيوم أن يجعلوا المسألة تحتلُّ نهايات عديدة، وفي الحالات جميعها، عندما يكون الحدث (أ) متبوعاً بالحدث (ب) بصورة منتظمة، فإنَّ بعض الحالات، أو معظمها سيكون سببياً حقيقياً، ولكن يمكن أن يكون بعضها عرضياً.

هنا يمتلك معارضو نظرية هيوم المقدرة على التمييز بين الأحداث السببية، والمصادفات، ويبدو أن مؤيدي نظرية هيوم لا يستطيعون إدراك هذا التمييز بسهولة؛ لأنَّ الأمر يتطلب صيغة أكثر تطوراً لنظرية هيوم، ليصبح من الممكن تمييز الأحداث السببية من المصادفات.

إلى أي درجة يكون الانتظام انتظاماً؟

إذا فكر أحدنا في مسألة الأسباب والمصادفات، ستكشف له نتيجة متناقضة فيما يخص نظرية هيوم عن الانتظام، وسيكون من السهل حدوث الاقتران الثابت كلما كانت الحالات أقل، فإذا حصل الحدث (أ) خمس مرات فقط على مرَّ التاريخ، وكان متبوعاً بالحدث (ب) في كل مناسبة، فإنَّ هذا يُعدُّ انتظاماً استثنائياً. لكن من المحتمل جداً، في ضوء الحالات القليلة، أن يكون هذا مجرد صدفة، يفهمها أتباع نظرية هيوم على نحو غير صحيح بأنها سبب.

وعلى أتباع نظرية هيوم الاعتراف بأنَّ حدوث كل من الانتظام والسببية مرتبطان باحتمالات عديدة إذا كانت الحالات السببية في حدِّها الأدنى.

تبدو هذه مفارقة؛ لأننا قد نفكر عادةً بأنه من المرجح أن يكون الحدث (أ) سبباً في حدوث (ب) كلما زادت الحالات التي يكون فيها الحدث (أ) متبوعاً بالحدث (ب).

لكن ماذا لو وجدت حالة واحدة من الحالات المرتبطة بالحدث (أ)، على فرض وجود كونٍ يحتوي على حدثين فقط: انفجار، ومن ثمّ وميض؟

والسؤال المطروح الآن: هل تسبّب الانفجار بحدوث الوميض؟ إذا ما اعتمدنا تفسير الاقتران الثابت، فمن المنطقي أن نقول: نعم؛ فالانفجار كان على الدوام متبوعاً بالوميض، ولكن ما زال بإمكاننا الاعتقاد بأنها صدفة محضة.

علينا أن نكون مُتصفيين مع هيوم؛ لأنه كان يملك جواباً لفرضية الحدث الواحد؛ فعندما طرح قضية إن كان الله قد تسبّب بوجود الكون من خلال عملية الخلق، فهو يرى أنه لا يمكننا تصنيف هذه العملية في إطار السببية؛ لأنها عملية فريدة بالمطلق؛ أي إنها تحدث مرّة واحدة فقط، ويصير على أن تكرار الأحداث يدفع أفكارنا إلى أن تتحو باتجاه السببية، وهذا بالنسبة إليه أمر صعب؛ لأننا لا نستطيع رؤية عملية خلق الكون تتكرّر مرّات عديدة، لكن الفكرة العامة هي قناعتنا بأن السببية فيها تفسير لمعظم الحالات، وستزداد بزيادة الأحداث المترابطة، بينما تتلاشى هذه القناعة كلما قلّت هذه الأحداث لتبدو مراجعة الموضوع متوائمة مع الحسّ السليم.

لدينا الآن أساسيات الانتظام وفق نظرية هيوم، وسنضيف إليها تفاصيل أخرى، فالانتظام ليس تاماً لكي نجزم بأن حدثاً واحداً يتسبّب بحدوث الآخر، ولكن الانتظام هو الجزء الأساسي في مفهوم السببية، ويجب أن نبحث عن علاقة الارتباط في العديد من العلوم بصورة رئيسة، فإذا وجدنا في نتيجة أحد البحوث

أنَّ معدَّل الشفاء من مرضٍ ما يتحسَّن عند تناول جرعة معينة من الدواء، ألا يكفي ذلك لأنَّ نعتقد بوجود حالة سببية تقف وراء الأمر؟

لا يتحمَّس العاملون في مجال العلوم لفكرة وجود سببية حقيقية تكمن وراء علاقة الارتباط، وربما يكون الأمر أكثر من مجرد الاشتباه بوجود تأثير ميتافيزيقيٍّ وراء ذلك، توجد وجهة نظر تقول: إنَّ علاقة الارتباط هي كلُّ ما لدينا، وعلينا ألا نتوقع وجود شيء ما وراء هذه العلاقة يُوَدِّي إلى الانتظام، ومع ذلك سنرى أنَّه يمكننا معالجة عدد من القضايا، إضافة إلى وجود نظريات أُخرى للسببية قد تثبت بأنَّها جديرة بالاهتمام.

